

تاريخ المكان ومكان التاريخ: علم الخطط أو طبوغرافية المدن

مصطفى بن حموش

قسم الهندسة المدنية والعمارة، كلية الهندسة، جامعة البحرين

(قدم للنشر في ١/٣/١٤٣٠هـ؛ وقبل للنشر في ٤/٤/١٤٣١هـ)

الكلمات المفتاحية: الخطة أو الخطط، العمران، التخطيط، العمارة الإسلامية، التاريخ، الجغرافيا، المكان.

ملخص البحث. يهدف البحث إلى تقديم علم الخطط المعروف في الغرب بطبوغرافية المدن في مفهومها الغربي القديم كمجال في دراسة التراث الأدبي المعماري والعماري الإسلامي، ثم ربطه بما استحدثت من علوم مرتبطة بمجال التخطيط والعمران في عصرنا. ويقوم علم الخطط في أبسط أشكاله على وصف الأماكن العمرانية من حيث الوعاء الفيزيائي من مبان وفراغات عامة ثم ذكر ما شهدته من أحداث تاريخية مهمة، وشخصيات اجتماعية أو علمية أو سياسية ارتبطت بذلك المكان. وقد استعمله الطبري كمرادف للوحدة الهندسية التخطيطية في المدن، بينما استعمله المقرئزي للكناية عن الحي السكني. ويقوم البحث على فرضية أن علم الخطط كان حقلاً يلتقي فيها كل من علمي التاريخ والجغرافيا دشنة العلماء المسلمون ليتجاوزوا ذلك الفاصل الإبستمولوجي بين المجالين المذكورين. وبذلك أصبح مجال الخطط هو علم تاريخ المكان وفي نفس الوقت علم مكان التاريخ. ولذلك فإن العودة إلى هذا العلم في يومنا هذا يمكنه أن يقودنا إلى: (١) إعادة المركزية الاصطلاحية لمفهوم "الخطة" في علوم الهندسة المعمارية والعمارة والعمران، و(٢) إلقاء الضوء على مساحة كبيرة من التراث العمراني الإسلامي ظل مغموراً في مجالات علمية أوسع، مما يساعد على فهم أكثر لهذا التراث ودراسته وتدريبه وتصنيفه، و(٣) فتح مساحة جديدة في حقل دراسات العمارة الإسلامية الذي لا يزال يجذب الباحثين والأكاديميين يربط بين التاريخ والجغرافيا.

المقدمة

وجه الأرض. وقد كان للحضارة الإسلامية دور مهم

في دفع هذين العلمين إلى ما هما عليه الآن من حيث المنهج و المادة العلمية و الوسائل. وإذا كانت مادة الزمان راسخة في الميتافيزيقا الإسلامية بفعل الإيمان

قد يكون التاريخ والجغرافيا أقدم علمين عرفتهما الحضارات البشرية التي عكست مدى اهتمام الإنسان ببعدي الزمان والمكان في حياته وماهية وجوده على

١٢٣٩م) "الكامل في التاريخ" وابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) "البداية والنهاية" تم التصنيف على أساس التسلسل الزمني. فالقارئ يكتشف خلال النصوص والسرد التاريخي خصوصية المكان وملامح العمران وجغرافيا المدن والمستوطنات البشرية. لكن تنازع العلمين كثيراً ما كان يبدو في الخلط المنهجي الذي كان يعاني منه المؤلفون. ولعل كتاب "مروج الذهب" نموذج لذلك الخلط بين محور الزمان والسرد التاريخي للأحداث من جهة، ومحور المكان والوصف الطبوغرافي للأماكن من جهة أخرى (المسعودي، ت ٣٤٦هـ-٩٥٧م)).

غير أن التوسع العلمي سرعان ما اقتضى تمايز كل من التاريخ والجغرافيا في الأدب وتنازعهما عن الريادة في المنهج. وسبب ذلك أن المكان الواحد كثيراً ما يكون مسرحاً لعدة أحداث، بل قد يكون هو العامل الرئيس في ولادة الأحداث، كما هو أمر الكعبة المشرفة مثلاً أو بيت المقدس أو المسجد النبوي التي توالى عليها أحداث تاريخية مهمة والتي شكلت بذلك تاريخ كل من مدن مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. وقد بدأت ملامح الدور الريادي للمكان تظهر على الأقل من خلال عناوين المؤلفات وذلك مثل "معجم البلدان" (الحموي، ٥٧٤-١١٧٨هـ، ٦٢٢-١٢٢٥م)) و"فتوح البلدان" (البلاذري، ت ٢٧٩هـ)) و"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" (المقدسي، ت ٣٨٠هـ)) و"المسالك والممالك" (ابن خردادبه، ت

بالغيب الذي يحدّد مسيرة البشر بين ولادة سيدنا آدم عليه السلام وقيام الساعة، فإن المكان قد تحدد في تلك الميتافيزيقا بكون الأرض مكان الابتلاء والعيش المؤقت. وقد جاء الإسلام ليؤكد تلك الثنائية وتفاعل الزمان بالمكان. فقد اهتدى المسلمون الأوائل بعد إرهابات فكرية إلى التأريخ لمسيرتهم الحضارية بيوم الهجرة. واستعانوا بالجغرافيا لتحديد نقطة بداية الحضارة التي ارتبطت بتلك الحادثة التاريخية، أي الهجرة، ثم مكة والقدس موضع القبليتين لتحديد اتجاه الصلاة فكانت مكة والمدينة وبيت المقدس أولى الأماكن التي ارتبطت بنشأة الحضارة الإسلامية.

وقد اتخذ التاريخ مكانة الريادة في الكتابات الأولى حيث اعتبر الزمان محوراً لترتيب تسلسل الأحداث والوقائع، واقتنعت الجغرافيا بأن تكون تابعة له حيث اهتمت بوصف الأمكنة التي حوت تلك الأحداث. وهكذا فقد عرفت الكتب الأولى تصنيفاً زمنياً للوقائع وضعت وحدات الزمن، اليوم والشهر والسنة ثم القرن، كأوعية لتنظيم فيها تلك الأحداث. وقد كان ذكر الأماكن يأتي عرضاً من خلال وصف تلك الأحداث. ولعل كتب السيرة التي اهتمت بتدوين حياة سيد البشر الخاصة والعامة تحوي بالإضافة إلى البعد الزمني، بعداً مكانياً يمكن للإنسان أن يدركه على وجه الأرض (شلتوب، ١٩٧٩م). فكتب كل من الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ، ٨٣٩-٩٢٣م) "تاريخ الأمم والملوك" وابن الأثير (٥٥٥م-١١٦٠هـ، ٦٣٧م-

أن يسمى علم الخطط. فقد بدأ المكان يأخذ مكانة محور التصنيف بينما أحييت المادة التاريخية إلى الصف الثاني. وفي بعض مؤلفات الخطط يكون عامل الزمن قد توقف أو غاب أو تقلص فاتحاً المجال للعامل المكاني أو الجغرافيا. لكنه في الغالب، ومهما يكن من اهتمام بالجغرافيا، فإن عاملي الزمان والمكان بقيا متلازمين في كتب الخطط، كما هو واضح في كتاب المقرئ الشهير وكتاب الخطيب البغدادي وغيرهما كما سنذكر ذلك بعد قليل.

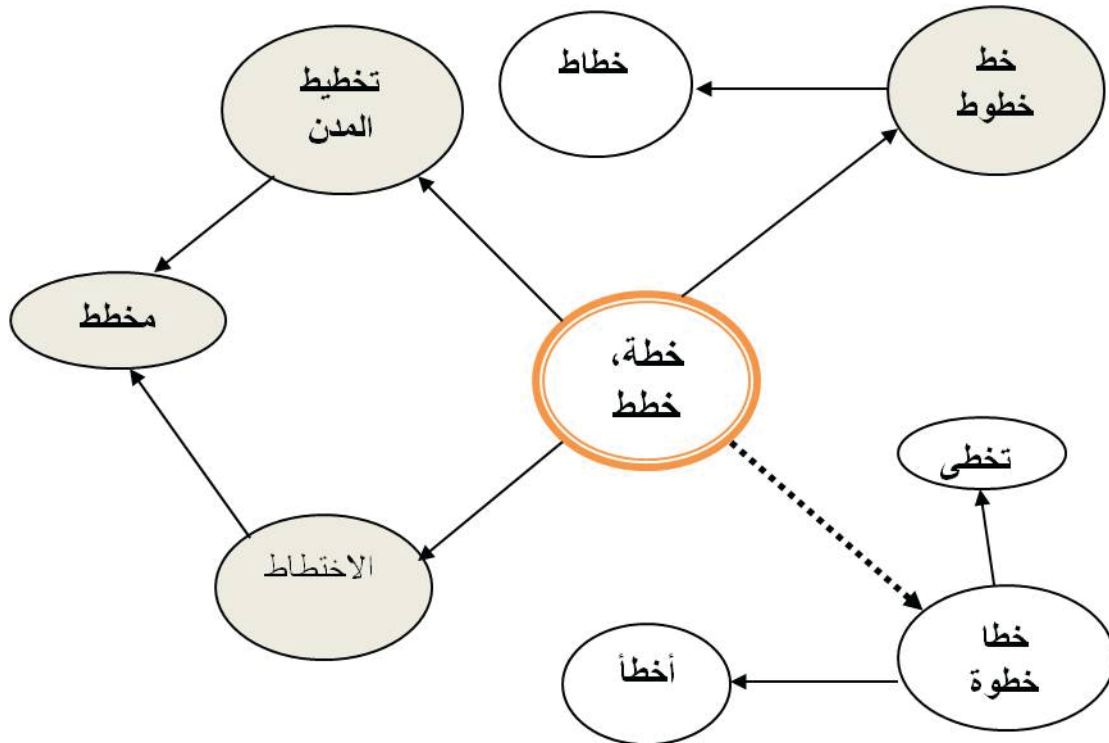
تعريف الخطط

بالإضافة إلى ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن مادة الخط (الفيروزبادي، ج ١ ص ٨٥٨؛ ابن منظور، ج ٧ ص ٢٨٧)، فقد عرف الأدب العربي مفردة الخطة (جمع الخطط) بالكسر ذات الصلة الوثيقة بالخط (الطبري، ج ٢ ص ٤٧٧). فالخط هو السطر، والتخطيطُ يعني التسطيرُ والتهديب. تقول: حُطِّطَ عليه ذنوبُه أي سَطَّرت. كما يكون كذلك الحُطُّ بمعنى الطريق، فيقال: الزَمَ هذا الحُطُّ أي اتبعه. ومن لم يلزم الطريق الصحيح يقال له أخطأ السبيل أي سلك سبيل الخطأ (ابن منظور، ج ١ ص ٦٦) (الشكل رقم ١). أما الحُطُّ والحِطَّةُ فهي الأرض تُنزلُ من غير أن ينزلها نازلٌ قبل ذلك.

٢٨٠هـ، ٩١٢م)). ولعل ما يكون قد أزعج ابن خلدون بالإضافة إلى المنهج السردى الذي كان يتبعه المؤرخون، هو هذا التباعد بين العلمين، مما حدا به أن يؤسس نظرية العمران التي تربط هذين العلمين. فرغم تغلب مادة التاريخ على مؤلفه الكبير "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" إلا أن مقدمته جاءت لتؤكد دور الجغرافيا الحاسم في نشأة الحضارات وحتمية شروط المكان في تشكيل الظاهرة الحضارية والتجمع البشري (ابن خلدون، (٧٣٢-١٣٣٢هـ، ٨٠٨-١٤٠٥م). وقد صاغ ذلك في ما اعتبره سنناً كونية تتحكم في الصيرورة التاريخية.

وهكذا بدأ التصنيف يأخذ في كتب متأخرة منحى اختصاصياً واضحاً يكون أحد المجالين رائداً والآخر تابعاً. فقد استمر اهتمام المؤرخين بالمذكرات وتدوين الوقائع ورصد الأحداث، واضعين الأماكن في المقام الثاني. في حين اهتم الجغرافيون والرحالة بوصف الأمكنة وصفاً دقيقاً حتى كأن القارئ يراها.

ومن هنا نفهم كيف نشأ "علم الخطط" الذي يعنى بالمدن والمستوطنات البشرية. فمن الطبيعي أن تكون للمدن مكانة خاصة في كلا المجالين العلميين التاريخ والجغرافيا باعتبارهما مسرح الأحداث ونشأة الحضارات وكذلك اندثارها، وهو ما بوأها مكانة خاصة في التصنيف، وأفرد لها مجالاً جديداً هو ما يمكن



الشكل رقم (١). المصدر اللغوي لكلمة خطة و مشتقاتها.

أما من حيث التنفيذ فقد ذكر الطبري أن كلاً من البصرة والكوفة وهما أول مدينتين نشأتا خارج الحجاز، خطتتا لسكانها وفق هندسة معينة من الشوارع والقوائم الأرضية. ثم جرت العادة الفعلية في التاريخ الإسلامي أن يأذن الحاكم لجماعة من المسلمين أن يَخْتَطُوا الدُّورَ في موضع بعينه ويتخذوا فيه مساكن لهم. غير أن طول استعمال المصطلح دفع فيما يبدو إلى توسع معناه من تحديد القطع الأرضية للبناء إلى الأحياء السكنية التي تنشأ إثر التخطيط. يقول المقرئ في ذلك: "اعلم أن الخطط التي كانت بمدينة فسطاط مصر، بمنزلة الحارات التي هي اليوم بالقاهرة، فقيل

فيقال عن قطعة أرض أن شخصاً خَطَّها لِنَفْسِهِ خَطًّا أو اخْتَطَّها بما معناه أنه يُعَلِّمُ عليها علامةً بالخطِّ لِيُعْلَمَ أنه قد احتازها لِيَبْنِيَهَا داراً. واخْتَطَّ فلان خِطَّةً إذا تحجَّرَ موضعاً وخطَّ عليه بجدار، وجمعها الخِطَطُ.

وتطلق مفردة الخِطَّةُ بالكسر على الأرض. كما تستعمل كذلك على مشروع بناء الدار حيث يَخْتَطُّها الرَّجُلُ في أرض غير مملوكة ليحدها بالحجر أو يتحجرها ثم يَبْنِيَ فيها. وفي بعض روايات ابن منظور: يقال خِطُّ للمكان الذي يَخْتَطُّه الإنسان لنفسه، من غير هاء، حيث يقال: هذا خِطُّ بني فلان.

فلما فرغ أبو جعفر المنصور من مدينة السلام وصير الأسواق في طاقات مدينته من كل جانب قدم عليه وفد ملك الروم فأمر أن يطاف بهم في المدينة ثم دعاهم فقال للبطريق: كيف رأيت هذه المدينة؟ قال: رأيت أمرها كاملاً إلا في خلة واحدة. قال: ما هي؟ قال: عدوك يخترقها متى يشاء وأنت لا تعلم وأخبارك مبثوثة في الآفاق لا يمكنك سترها. قال: كيف؟ قال: الأسواق فيها والأسواق غير ممنوع منها أحد فيدخل العدو كأنه يريد أن يتسوق وأما التجار فإنها ترد الآفاق فيتحدثون بأخبارك. قال: فزعموا أنه أمر المنصور حينئذ بإخراج الأسواق من المدينة إلى الكرخ وأن يبنى ما بين الصراة إلى نهر عيسى وولى ذلك محمد بن حبيش الكاتب ودعا المنصور بثوب واسع فحد فيه الأسواق ورتب كل صنف منها في موضعه (...). ثم أمر أن يبنى لأهل الأسواق مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة لا يدخلون المدينة ويفرد لهم ذلك وقلد ذلك رجلاً يقال له الوضاح بن شبا" (البغدادي).

كما حدث نفس الأمر عند تشييد مدينة سرّ من رأى. فيذكر صاحب كتاب البلدان أنه: "... لما فرغ المعتصم من الخطط، ووضع الأساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة، وهو جانب سر من رأى، عقد جسراً إلى الجانب الغربي من دجلة، فأنشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة حفر الأنهار من دجلة" (اليقوي، (ت ٢٩٢هـ)، ٢٠٠٢، ج ١ ص ١٤).

لتلك في مصر: خطة، وقيل لها في القاهرة: حارة" (المقريزي، ج ١ ص ٨١٩).

ومن الطريف أن ندرك هنا مدى ارتباط مفهوم الخطط بالخط والتسطير الذي هو أساس الاحتراف الهندسي والتخطيط بمعناه المعاصر. فالتخطيط يعني في أبسط صورته وضع الخطوط على الورق أو الأرض وفق تصور مسبق في ذهن الخبير بشؤون البناء وال عمران وذلك بهدف الشروع في البناء وتنفيذها بأحسن ما يكون من تدبير وما يتوفر من إمكانيات.

الاختطاط والتخطيط

يقود موضوع الخطط إلى سؤال مهم حول مصدر القرار فيها، وهو موضوع ذو أهمية قصوى في مجال التخطيط العمراني في عصرنا. فهل يعود قرار وضع الخطط إلى الحاكم الذي يحدد قطعاً أرضية للسكان الذين يباشرون بدورهم عملية البناء، وهو ما يمكن تسميته بعملية التخطيط؟ أم أنه يمكن للخطط أن تكون ناجمة عن عمل جماعي مباشر من الذين سيسكنون المكان وهو ما يمكن تسميته بعملية الاختطاط؟

الواقع أن وضع الخطط يمكن أن ينطبق على النموذجين. ففي الأول نجد المدن الأميرية والملكية التي يقوم بتخطيطها وتشبيدها الحكام ومن أمثلتها مدينة السلام التي قامت بقرار سياسي وشهدت ترابطاً بين تنفيذ الخطط على الأرض وتخطيطها على الورق: "...

ناشزة المغافري ، وكانوا هم الذين أنزلوا الناس ،
وفصلوا بين القبائل ، وذلك في سنة إحدى وعشرين"
(المقريزي ، ج ١ ص ٨١٩).

موضوع علم الخطط ومجاله

لقد اهتم علم الخطط منذ نشأته بالمدينة
كظاهرة بشرية وبالمكان كوعاء لها. ففي أبسط صور
هذا العلم نجده عبارة عن وصف للمدن وصفاً أدبياً
دقيقاً يصل بالقارئ إلى استحضار الصورة الحية للمكان
الموصوف. فقد كانت أعمال المؤلفين تشمل كلما تراه
العين من شوارع ومبان وساحات وأسوار وتفصيل
معمارية وزخرفية وأثاث داخلي بالإضافة. وقد كانت
بعض تلك الكتب تسترسل أحياناً في تفاصيل الحياة
اليومية وتسرد أهم الأحداث التي جرت فيها وفق
تسلسلها الزمني.

أما في أوسع مجالاته فإن موضوع الخطط يعني
ال عمران بذاته الذي يجمع فن إنشاء المدن والاجتماع
البشري وعادات الناس وثقافتهم ، واقتصاد المعيشة
وتدبيرها وسياسة الملك وإدارة الدول وطبيعة الأرض
التي تنشأ فيها المستوطنات. ولذلك فقد عرف محمد
كرد الخطط على أنها كل ما يتناول العمران وتاريخ
البلد وحضارته (كرد علي ، ج ١ ص ٢).

ولذلك فإن تعريف الخطط يقودنا إلى ذكر
أبوابه المهمة والمتمثلة في وصف المدن ورصد التحولات
التي حدثت فيها على مر التاريخ ، وكتابة تاريخ نشأة

أما النموذج الثاني من الخطط فهو الذي يقوم
به السكان دون تدخل السلطة وهو ما قد يسمى
بالاختطاط. فالروايات تذكر أنه أول عملية خطط قام
بها الرسول ﷺ في المدينة المنورة. فقد "نزل بقاء على
كلثوم بن الهدم ، ثم مات كلثوم فنزل على سعد ابن
خيثمة الأنصاري ، ودار سعد بن خيثمة إلى جانب
مسجد بقاء ، ثم انتقل إلى المدينة فكتب معاقلها ،
واختط الناس بها الخطط ، وكانوا قبل ذلك مفترقين ،
واتصل البناء بعضه ببعض حتى صارت مدينة"
(اليقوبي ، ج ١ ص ٣٣).

كما يذكر السيوطي الدور الحاسم للسكان في
تنمية خطط الجزيرة حيث يذكر أنه : "... كان بين القبائل
فضاء ، من القبيل إلى القبيل ، فلما قدمت الأمداد في
زمن عثمان بن عفان وما بعد ذلك ، وكثر الناس ،
وسع كل قوم لبني أبيهم حتى كثر البنين ، والتأم
خطط الجزيرة" (السيوطي ، ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧م).

وقد يستشف من بعض المصادر أن وضع
الخطط وتعميرها يكون مجالاً وسيطاً بين الراعي
والرعية حيث تتم العملية بحضور كل من الجهتين
والتناسق بينهما. فالمقريزي يذكر نقلاً عن سابقه
القضاعي أنه : "... لما رجع عمرو من الإسكندرية ،
ونزل موضع فسطاطه ، انضمت القبائل بعضها إلى
بعض ، وتنافسوا في المواضع ، فولى عمرو على
الخطط : معاوية بن خديج التجيبي ، وشريك بن سمي
الغطيفي ، وعمرو بن قحزم الخولاني ، وحيويل ابن

ففي كتاب المقرئ مثلاً تبدو غاية التأليف من خلال العنوان: "ذكر الخطط والآثار"، الذي يعني الاعتبار الديني بما سلف والاعتاظ بما حدث وهو ما يتماشى مع حث القرءان الكريم للنظر فيما سبق من الأمم وأخذ العبر منها. يقول المقرئ في مقدمته مفسراً الغرض من وضعه: "ومن عنوانه أعني أنّ منفعته هي أن يشرف المرء في زمن قصير على ما كان في أرض مصر من الحوادث والتغييرات في الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة، فتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله، ويكره الشرّ ويتجنبه، ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالإعراض عنها، والإقبال على ما يبقى".

ولا يقتصر هذا المنحى على المقرئ حيث يرى الجبرتي أن الغرض من التاريخ هو الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت، وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تغلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين، ويستجلب خيار أفعالهم ويحتمل سوء أقوالهم ويزهد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي (الجبرتي، ١٩٩٧م).

إن هذا التوجه الأخلاقي لا يعني أن المقرئ هو التلميذ النجيب للعلامة ابن خلدون، مؤسس علم العمران والدراسات الحضارية، قد غفل عن إعمال العقل التجريدي والغوص في لب علم التاريخ الذي حدّده ابن خلدون بكونه فهم السنن الكونية التي

المدن والمجمعات البشرية واندثارها إن حدث ذلك، وطرق تخطيطها وتوزيع المناطق فيها، وتقسيم الأراضي إلى قطائع للسكن والأنشطة الحضرية المرافقة، ووصف الشوارع والمباني والفراغات العامة وأسوارها وبواباتها وطبوغرافيتها، وتحديد الأماكن والمباني وإحصائها، وذكر العناصر الطبيعية الأساسية في مواقعها مثل الأنهار والمنحدرات والمرتفعات والجبال والوديان (ابن العديم، ٢٠٠٥م).

ولذلك فإن المهتم بالخطط في المخطوطات القديمة والتراث الأدبي سيجد أن الموضوع غير مستقل بذاته وإنما يندرج تحت مجالات وفنون أخرى تمزج بين التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والاقتصاد وغيرها أو يستمد مادته منها. وهذه المجالات تجسدت في أبواب تلك الكتب أو عناوينها. ومن أمثلة ذلك تاريخ الأمم عامة، وكتب وصف البلدان والمدن، وحركات فتوح الأقاليم، ومعاجم البلدان، وذكر التراجم والسير وطبقات الرجال. ومع عدم القطع باستقلال علم الخطط بنفسه من خلال المصادر المذكورة حيث كان دائماً يدرج تحت عدة مجالات وفنون أكبر منه أو يتقاسم مادته معها، فإن المسح السريع لموضوع الخطط من خلال مصادره يكاد يجزم بوجود مساحة أكاديمية خاصة به.

دوافع نشأة علم الخطط وغاياته

كثيراً ما يعبر المؤلفون عن دوافعهم في التأليف في هذا الصنف من الأدب في مقدمات تلك المؤلفات.

والفقهاء والأولياء الصالحين والأعيان. ولذلك فإن الخطط أحياناً ما هي إلا جمع للأخبار تحت الترتيب الجغرافي والمكاني.

كما تكون كتب الخطط في جمعها للتفاصيل التاريخية هي أقرب إلى الأثروبولوجيا والأحداث الصغيرة التي يعيشها المواطن البسيط، مما يغطي تلك الحاجة الملحة التي انتبه إليها المؤرخون المعاصرون في نقد المدارس التاريخية القديمة التي تعير أكثر الاهتمام إلى الأحداث السياسية والعسكرية الكبرى وسير الملوك والأمراء والقادة، في حين تستصغر أحداث الحياة اليومية التي تمدنا بالصورة الحقيقية للحضارات والمجتمعات، وهو ما ستتعرض له في آخر هذا البحث. فيكون حينئذ موضوع الخطط هو الأثروبولوجيا أو التاريخ الأصغر، في مقابل التاريخ الأكبر.

وفي المجال السياسي كثيراً ما تكون كتب الخطط عوناً للحكام والوزراء في إدارة المدن والأقاليم. فالمسعودي مثلاً يذكر سبب وضع كتابه "مروج الذهب" في مقدمته فيقول: "وجعلته تحفة للأشراف من الملوك وأهل الدرايات لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة إليه (المسعودي، ت ٣٤٦هـ، ٩٥٧م، ١٩٧٩). فبمعرفة عدد سكان المدن ونفوسها ومساحاتها ومبانيها تقوم السياسة الداخلية للممالك وذلك مثل جمع الإتاوات والخراج والمصاريف الدولة (الحموي، ج ١ ص ١٧). كما تصنف كتب الخطط أحياناً بغرض تقديمها للحكام للاستفادة العلمية منها، وتوسيع

تتحكم في ظاهرة التجمع البشري أو العمران. ولذلك فإنه كثيراً ما نجد في كتب المقرئزي نوعاً من التنظير الخفي للعمران أسوة بمعلمه. فعلم الخطط إذن لا يعدو أن يكون تركيزاً على دور المدن في حركة التاريخ والحضارة واستخراجاً لقوانين التمدن والاجتماع.

كما تكون كتب الخطط تجسيدا للسياحة في الأرض التي أمر بها القرءان الكريم. فكثيراً من الرحالة قد خرجوا من بيوتهم هائمين لا دافع لهم إلا حب الاطلاع على أحوال الأمم وطبائعها ومعرفة الأقاليم والأمصار ومدنها، مما جمع لهم مادة دسمة من أوصاف تلك المدن والمستوطنات. ولا نستبعد أن تكون تلك الرحلات بهدف نشر الإسلام وإظهار تعاليمه كما يبدو ذلك جلياً في أعمال كل من ابن جبير (عاش في الفترة ٥٣٥-٦١٤هـ، ٢٠٠٧) وابن بطوطة (عاش في الفترة ٧٠٣-٧٧٩هـ، ١٣٠٤-١٣٧٧م، ١٩٩٧). كما لا نستبعد استفادة حركة الفتوحات الإسلامية من تلك الرحلات التي تكون بمثابة جولات استطلاعية إلى المناطق البعيدة والمدن المجهولة.

وإذا كان الحدث التاريخي في غالبه لا يمكن فهمه كما ينبغي إلا بحضور البعد المكاني، فإن دور كتب الخطط في هذه الحالة هو تقديم الدعم لعلم التاريخ بغرض فهم الوقائع وتصورها كما ينبغي. ولذلك نادراً ما تستقل الأحداث التاريخية عن وصف المدن. وفي نفس هذا السياق كثيراً ما ترتبط كتب الخطط كذلك بمواضيع التراجم وسير الرجال وطبقات العلماء

مداركهم حول أوضاع رعاياهم والمدن التي تحت أيديهم. فقد ناهزت الكتب الألف كتاب حسب مؤلف المستشرق بروكلمان (١٩٩٣م) الذي اهتم بعد المخطوطات العربية وتصنيفها.

أما آخر ما عرف من كتب الخطط فإن كلاً من علي باشا مبارك ومحمد كرد علي وضعاً كتاباً في الموضوع. فقد قام علي باشا مبارك (١٢٣٩هـ، ١٨٢٣م-١٣١١هـ، ١٨٩٣م) الذي نهل كثيراً من العلوم الغربية وأقام بفرنسا سنين وألف كتاباً عن القاهرة سماه الخطط التوفيقية هذا فيها حذو الخطط المقريزية فوصف فيها خطط القاهرة الجديدة والأعمال الكبرى التي أقيمت تحت تأثير النهضة الأوروبية في ستة مجلدات. وبالمثل قام محمد كرد علي (١٨٧٦-١٩٥٣م) بوضع خطط الشام المعاصر في ستة مجلدات خصص فيها المجلدين الأخيرين لمسائل الخطط المتعلقة بجانب العمران والتخطيط وإدارة المدن. ويبدو من كلا الكاتبين ارتباطهما الوثيق بأوروبا وتأثرهما الشديد بالمدنية الغربية وحادثة عمرانها آنذاك، مما جعل من جهودهما الأدبية محاولة لردم الفجوة الحضارية بين العالم العربي والإسلامي والعالم الغربي، وتصيب بذلك في جهود المدرسة الإصلاحية التي قامت آنذاك.

أما من حيث المنهج، فإنه يمكن تقسيم كتب الخطط إلى صنفين أحدهما عام والآخر متخصص. ونعني بالصنف الأول تلك التي تعاني من الفكر الموسوعي الذي يحاول أن يغطي عدة أصناف من

مداركهم حول أوضاع رعاياهم والمدن التي تحت أيديهم. وفي بعض الأحيان تصدر مؤلفات الخطط بدوافع حنين نفوس المؤلفين إلى أوطانهم ومدنهم بسبب هجرتهم إلى أماكن أخرى. فتكون تلك الكتب استرجاعاً للذكريات وتدويناً للمكان الذي استوعبها، حيث لا تكتمل تلك الذكريات إلا باستحضار المكان الذي جرت فيه (المسعودي، ١٩٧٩م).

أهم كتب الخطط ونماذجها

لعل بواكير كتب الخطط هي تلك التي اهتمت بكل من مكة والمدينة التي تعود إلى القرنين الأول والثاني التي قام المستشرق الألماني وستنفلد (ت ١٨٩٩م) بجمعها وإصدارها عام ١٨٥٨م (شلتوب، ١٤٠٣هـ). فقد كتب الحسن البصري (ت ١١٠هـ) تاريخ مكة، وابن زباله (ت قبل ٢٠٠هـ) تاريخ المدينة. أما القرنان الثالث والرابع فقد شهدا كلاً من تاريخ مكة للأزرقي (ت ٢٤٤هـ)، وفتوح مصر لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)، وتاريخ المدينة لعمر بن شبة النميري (١٧٣-٢٦٢هـ) (شلتوب، ١٤٠٣هـ).

وقد توالى كتب الخطط بعد ذلك بغزارة. فقد أحصى ابن النديم (ت ٤٣٨هـ) من هذه الكتب حوالي ٨٥ كتاباً، فيما وجد الصلاح الصفدي (ت ٧٦٤هـ، ١٩٩٧م) الذي جاء بعد بأكثر من ثلاثة قرون حوالي ١١٥ كتاباً. وقد أحصى السخاوي (عاش في الفترة

وسنورد في هذا البحث نماذج من مؤلفات الخطط للاستئناس بها في دراستنا هذه لا على سبيل الحصر.

مكة المشرفة

ويأتي في المقدمة كتاب "مكة المشرفة والمسجد الحرام" لقاضي القضاة، شيخ الإسلام، أبو البقاء محمد بهاء الدين بن الضياء المكي الحنفي القرشي العمري العدوي (١٩٩٧م)، الذي جمع جمعاً مرتباً على بابين مستقلين. ويضم الكتاب مختصراً مفيداً لتاريخ مكة والكعبة المشرفة، حيث يصف كلاً من المدينة والمسجد الحرام بطريقة تساعد إلى حد بعيد على إعادة التركيب التخطيطي والتصميمي لكل منهما. بالإضافة إلى سرد أعمال كل من الخليفة عمر بن الخطاب وابن الزبير وعبد الملك بن مروان تاريخياً، فإن الكتاب كذلك يقدم وصفاً معمارياً لعناصر المسجد الحرام من أبواب وأعمدة ومنارات وغيرها.

المدينة المنورة

يعتبر كتاب السمهودي (ت ٩١١هـ) عن المدينة المنورة ذا أهمية علمية ومادة تفصيلية ورؤية جامعة نادرة. ورغم تأخر زمن صاحبه فقد هضم كل المصادر السابقة حول خطط المدينة وتجاوزها. كما تضمن كتاب ابن الضياء الذي سبق ذكره باباً خاصاً بالمدينة المنورة وبالحرم النبوي الشريف. ومن الكتب السابقة للسمهودي كتابا كل من محمد بن الحسن المعروف بابن

العلوم تحت مسمى الخطط ويمسح مجالاً جغرافياً واسعاً يشمل كل مدن العالم الإسلامي أو العالم القديم مثلاً. فمن هذا الصنف نذكر كتب البلدان التي تصف المدن والأقاليم من منظور جغرافي واسع، وتتوقف عند حد المقياس الإقليمي، وهي بذلك أشبه ما تكون بمقدمة للخطط، لأنها تعتمد على الوصف العام. ومن أمثلة ذلك نجد كتاب القلقشندي (٧٥٦-٨٢١هـ، ١٣٥٥-١٤١٨م) الذي يجمع في كتابه الموسوعي بجانب وصف المدن كل مظاهر التمدن والحياة الاجتماعية والمناصب الإدارية وسلوك الملوك والقواد والوزراء وغير ذلك من العلوم وفنون اللغة والكتابة. ومثله كذلك كتاب البلدان لليعقوبي الذي يشبه إلى حد بعيد موسوعة مدن البلاد الإسلامية حيث يبدأها ببغداد وينتهي إلى السوس الأقصى وسجلماسة ببلاد المغرب. ويتنظم في هذا النمط كذلك كتاب ياقوت الحموي "معجم البلدان" الذي يصنف البلدان بحسب الترتيب الأبجدي، وذلك بعد أن يأتي بمقدمات عن الأقاليم السبعة التي تشكل الأرض وكذلك المفردات الخاصة التي يستعملها في كتابه.

أما الصنف الثاني الذي يهمننا أكثر فهو تلك الكتب التي تقتصر على مدن معينة وتوفيهما حقها من الوصف التفصيلي حول تركيبها العمرانية ومكوناتها الحضرية من شوارع ومبان وأحياء سكنية وأسوار وغيرها من العناصر المعمارية والعمرانية إضافة إلى خصوصيات سكانها الاجتماعية والثقافية والعرقية.

بين الشام والعراق وتحول فيما بعد إلى منافسة حضارية حول ريادة العالم الإسلامي كانت وراء تأليف هذا الكتاب كما نستشفه من تصريح ابن خلكان الذي اعتبر أن تاريخ دمشق ألف على نسق تاريخ بغداد (شمساني، ١٩٩٠م: ص ٦٨). لكن المقارنة بين نصي الكتابين يبيّن أن تاريخ دمشق يحمل في طياته تفصيلات ومدلولات عن دمشق وتاريخها وطبوغرافيتها تفوق تلك التي في خطط بغداد، فيما يشترك المؤلفان في اعتقادهما أن المدينة إنما هي بأهلها وساكنيها من الصالحين والعلماء. فبعد أن يقدم صاحب كتاب دمشق أهم العناصر العمرانية للمدينة من بوابات ومساجد ومقابر ومشارب ينظم المؤلف على منوال كتاب تاريخ بغداد ذكر من سكن المدينة أو زارها في ترتيب أبجدي التقليدي.

مدينة القاهرة

لعل أشهر مصنف يقف عنده الباحث في موضوع الخطط هو كتاب خطط المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) الذي يتعرض لعمران القاهرة. ويتميز المؤلف بتغطيته الشاملة لمختلف أبواب موضوع الخطط. فبالإضافة إلى اطلاع المقرئزي الواسع وانغماسه في الحياة المدنية سواء من خلال وظائفه الرسمية كقاضٍ ومحتسب وكاتب، أو حدسه المرهف كعالم ومؤرخ، فقد جمع كل ما كتب قبله عن مدينة القاهرة من كتب الخطط السابقة لعصره. وقد أوردها بكل أمانة في مقدمته. وقد تميز

زبالة (١٩٩هـ)، و عمر بن شبة النميري (ت ٢٦٢هـ). وقد تمكن الدكتور صالح لمعي مصطفى (١٩٨١م) من كتابة تطور المدينة المنورة العمراني وتتبع تراثها الحضري من خلال عمل السمهودي والدراسة الميدانية.

مدينة بغداد

لقد كانت هذه المدينة أهم حاضرة في العالم الإسلامي لمدة قرون مما جعلها محط اهتمام المؤرخين. ولعل أهم ما كتب عن خططها هو كتاب "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي (٣٩٣-٤٦٣هـ) الذي اهتم بمدينة السلام التي دشنها أبو جعفر المنصور سنة ١٥٠ للهجرة. وقد قام بوصف خططها ومحالها، وطاقتها وسككها ودروبها وأرباضها وجسورها ومساجدها الجامعة. غير أن هذا الجزء المتعلق بالخطط لا يشكل إلا جزءاً صغيراً من المؤلف الذي اهتم بتراجم الصحابة والتابعين والفقهاء والأعيان الذين عاشوا في هذه المدينة. وقد صنفت أسماء الأعلام بالترتيب الهجائي. ولعل كتاب بغداد مدينة السلام لصاحبه الدكتور صالح أحمد العلي (١٩٨٥م) الذي اهتم كذلك بتاريخ بغداد وخططها هو أحد معالم كتب الخطط في عصرنا عن هذه المدينة.

مدينة دمشق

ويأتي تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (٤٤٩-٥٧١هـ) مشابهاً لكتاب بغداد، ويبدو من خلال المقدمة أن التنافس السياسي الذي نشأ واستمر

لقد اعتمد علم الخطط في الدراسات القديمة اعتماداً كلياً على النص الأدبي ، وحذق المؤلف في الوصف. وكان ذلك بمثابة استجابة إلى الحاجة إلى التصوير والمحاكاة والرسم والتصميم والتخطيط التي أصبحت في يومنا هذا جزءاً من الحياة المهنية المتعلقة بالمدن والعمران. ولذلك فإن الاطلاع على أي كتاب قديم عن الخطط يساعد إلى حد كبير في إعادة رسم المدن وتخطيطها في صورة تجريدية قريبة إلى الواقع إلى حد بعيد.

لقد بدأ علم الخطط في الغرب منذ القرن الخامس عشر مصاحباً عصر النهضة ثم حركة الاكتشافات والانفتاح على العالم الخارجي الذي سبق حركة الاستعمار الواسعة. وفي إطار هذه الحركة العلمية الجديدة شهدت كل من روما ولندن وباريس وبعض المدن الأوروبية دراسات طبوغرافية مستفيضة تصف كل شاردة وواردة فيها في إطار حركة أنسنة العلوم والمناهج. في حين شهدت بعض المدن العربية والإسلامية التي ابتليت بالاحتلال دراسات مستفيضة قام بها مستشرقون استجابة لنهمهم الأكاديمي أحياناً واستجابة لطلب السلطات الإدارية العسكرية التي استعانت بتلك الدراسات لتسهيل عمليات الاحتلال والتحكم في المجتمعات بعد فهمها (بن حموش وبلقاضي، ٢٠٠٤م).

وقد استمر هذا العلم في أوروبا واحتفظ بخصوصياته لكنه أضع الكثير من زخمه بسبب ظهور مجالات علمية منافسة أخرى. وقد دخل علم الخطط

الكتاب عن كل ما سبقه أو لحقه من وصف مستفيض لمكونات المدينة ، والتحويلات العمرانية التي شهدتها على مختلف العصور ، التي عاشها المؤلف بنفسه والتي استقاها من المراجع السابقة عنه ، مما يجعله مدرسة فكرية في علم الخطط.

وضع علم الخطط في يومنا

يجب قبل التطرق إلى وضع علم الخطط في عصرنا التعرض إلى إعادة تعريفه ، نتيجة التطور العلمي الهائل الذي حدث في مختلف المجالات القريبة والمنافسة له. ففي مفهومه القديم الذي يشترك فيه الأدب العربي بالمفهوم الأوروبي السابق ، يعتبر علم الخطط هو نفسه الطبوغرافيا ، وهو دراسة خصوصية المكان الناشئ من معطيات الطبيعة مثل الأنهار والشواطئ من جهة ، والأعمال التي قام بها الإنسان في عين المكان مثل الحفر وبناء الجسور وشق الطرق وتشيد المباني من جهة أخرى.

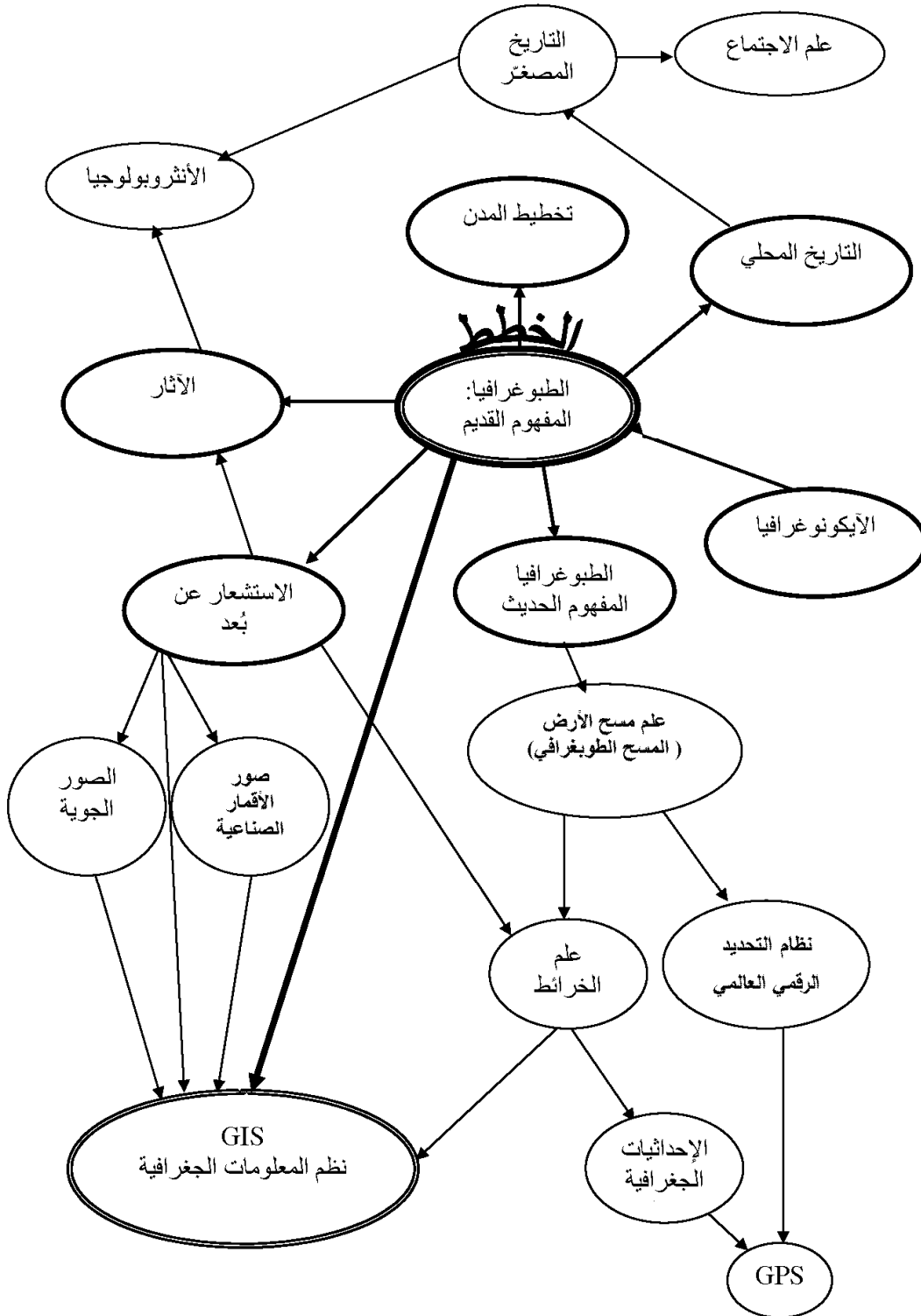
أما مفهوم الطبوغرافيا في عصرنا الذي أخذ يتجلى ببطء تحت تأثير المنظور الغربي الحالي ، فقد تخلى عن ذلك المنظور الموسوعي وتلك الأبعاد الثقافية والتاريخية والاجتماعية المتعددة ، ليقصر على الخصوصيات الجغرافية وبالتحديد على دراسة التضاريس ومنحنيات التسوية ، أو كيفية إظهار سطح الأرض في شكل ثلاثي الأبعاد.

الدراسة من كل الجوانب والاستعانة بتلك الفروع لتغطية الجوانب الناقصة. ومن أمثلة تلك التخصصات المتحالفة مع هذه المدرسة نجد الأنثروبولوجيا أو علم دراسة الإنسان، والسوسيولوجيا أو علم الاجتماع. في حين كان للأركيولوجيا أو علم الآثار مهمة البحث والتنقيب عما كانت عليه المستوطنات البشرية قبل اندثارها. ولذلك يمكن أن نعتبر أن بحوث علم الخطط قد استمرت إلى يومنا هذا تحت مسمى دراسات الحالات Case Studies في كل من علوم التاريخ وتخطيط المدن والآثار والسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والجغرافيا البشرية والجغرافيا الحضرية والبيئة.

كما كان لتطور العلوم الجغرافية دوره المهم في تحلل علم الخطط بمفهومه القديم. ولعل أهم ما استجد في هذا المجال هو الخرائط الطبوغرافية التي أصبحت تغني في كثير من الأحيان عن النصوص. فيكفي مثلاً النظر في الخريطة ومفاتيح رموزها لإدراك الشكل العام للمدينة وطبوغرافيتها بالمفهوم القديم بما في ذلك تقاطع الشوارع وأماكن المباني وحدود المدينة ومواقع الجسور ومسارات الأنهار وتوزيع الخدمات والمرافق العامة وهي التفاصيل التي كانت تستهلك الكثير من الحبر والجهد لوصفها والوصول إلى نسبة معينة من الدقة عن طريق النص الأدبي. وقد نشأ بذلك علم الكرتوغرافيا الذي يهتم بطرق تصميم الخرائط والإسقاطات والترميز وتحديد المصطلحات المناسبة لوضع مفاتيح الخرائط (الشكل رقم ٢).

مرحلة الانحلال الذي جاء نتيجة التشعب العلمي. وأخذ ينطبق على هذا العلم قول الفقهاء في أن "الوصف في حضور الشيء لغو". فقد ظهرت الكثير من الوسائل والتقنيات والمناهج العلمية التي دفعت الباحثين إلى الاستغناء عن الوصف الأدبي وبذلك إلى تقلص النصوص لتفسح المجال لتلك المستجدات التي سنورد أهمها بعد حين.

غير أن الجانب التاريخي السردى "الحدثي" في علم الخطط اتخذ مساراً آخر تحت العلم الأم - أي التاريخ - ففي ظل تقدم العلوم الإنسانية أخذ يندرج تحت مدرسة التاريخ الحديثة التي ظهرت في فرنسا تحت مسمى "مدرسة الحوليات" التي حولت أنظار الباحثين والمؤرخين من الوقائع السياسية الكبرى إلى ما يشبه الخروج بالثوابت التي تتحكم في صيرورة الإنسان في مكان معين. وقد برز ما يشبهها في البلدان الأنجلوساكسونية باسم التاريخ الصغير أو المحلي أو الميكرو تاريخ Micro-History وأحياناً التاريخ التطبيقي Applied History. وتتبلور فلسفة هذه المدرسة حول اتخاذ الحياة المدنية البسيطة أو "الإنسان العادي"، التي تشكل منها المدينة محوراً للدراسات و مجالاً للبحث، وذلك في مقابل ما كانت تقوم به مدرسة التاريخ القديمة، من تدوين "تاريخ الأمم والملوك" وإبراز أدوار العظماء من السلاطين والقادة العسكريين والعلماء وغيرهم. ولذلك فإن هذه المدرسة كثيراً ما تتشابه مع فروع ومجالات علمية أخرى في إطار الإحاطة بموضوع



الشكل رقم (٢). وضع علم الخطط من بين العلوم الحديثة.

الجوية الفوتوغرافية التي تؤخذ عن طريق الطائرات الاستطلاعية، وصور الأقمار الصناعية التي تلتقط على بعد مئات وآلاف الكيلومترات. ويرتبط كلا النوعين بتطور نظام الإحداثيات الجغرافية وتحديد المواقع أو GPS الذي يعطي أماكن الأشياء وأحجامها ومساحات والمسافات بينها بدقة متناهية. وهكذا تحولت النصوص إلى صور، والتحليل العقلية للمشاهد المباشرة إلى تحاليل مخبرية ورقمية للصور المتقطعة.

ولعل آخر ما استجد في العلوم الوريثة للخطط هو علم نظم المعلومات الجغرافية GIS. فقد أخذ هذا العلم يجمع بين مجالات علم الخرائط والاستشعار عن بعد وعلم الجغرافيا وعلم تقنيات المعلومات ووسائل الإعلام والإحصاء والرياضيات وكذلك مجال التاريخ التطبيقي عن طريق استعمال الخرائط التاريخية والتحقق فيها (Knowless, 2002).

ورغم ما يبدو من اندثار علم الخطط نتيجة ظهور المجالات المنافسة له فإن روح هذا العلم لا تزال قائمة إذا ما نظرنا إليها من منظور ابن خلدون في الغاية من دراسة التاريخ الذي ينطبق كذلك على علم الخطط وهو معرفة "طبائع العمران". فالغاية القصوى من الخطط بعد جمع الأخبار والتحقق من صحتها وتحديد مكانها على وجه الأرض هو الوقوف على القوانين التي تحكم حركة البشر في تعمير الأرض وإنشاء المدن والمستوطنات البشرية ومدى عمل الحتمية الجغرافية في سلوك البشر ثم الاطلاع على أحوال المجتمعات في

كما كان للتصوير اليدوي والمناظر picturesque ثم لاختراع الصورة الفوتوغرافية أثره الكبير كذلك على تصوير الأماكن والمباني، بشكل يغني عن الوصف الأدبي. وقد نشأ لذلك فروع الأيكونوغرافيا والليطوغرافيا التي تهتم بإنشاء صور الأشياء على الأشكال المسطحة ثم بجمع الصور القديمة وتحليلها وتحديد الأماكن التي أخذت منها مما يساعد المؤرخ كثيراً في الاستعانة بها عند كتابة موضوع الخطط (Oulebsir, 2004).

أما الخطوة الأخرى الأكثر تأثيراً في مسار علم الخطط أو الطبوغرافيا القديم فقد جاء إثر دخول تقنية الصورة المجال الجوي والتي ما فتئت تشهد تطورات هائلة في النوع والكم. فقد أصبحت دقة الخرائط ترتبط بدرجة كبيرة بنوعية العدسات ونسبة تركيز الالتقاط مما أدى إلى نقل علم الجغرافيا إلى مستوى كبير من الدقة والسعة والتحليل. فالصور الجوية ابتداء من المنطاد ثم الطائرة وأخيراً الأقمار الصناعية بحسب نسبة دقتها أصبحت توفر صوراً قمرية بسعر تجاري مقبول تصل دقتها إلى ما يقل عن ٣٠ سم. كما أن تراكم الصور منذ بداية التقنية أصبحت مهمة للغاية لما تسمح به من المقارنة بين تاريخين وإدراك التحولات الطبوغرافية التي حدثت بينهما.

ومن الصعب أن نستبعد أثر هذا التقدم ونشأة ما يسمى بعلم الاستشعار عن بعد Remote Sensing. وقد انقسمت الصور بذلك إلى قسمين هما الصور

مختلف الحالات من تخلف وتقدم، وبدعوة وحضارة، وقلّة معيشة ورغدها، وخصب وجوع، وخوف وأمن، وفساد وصلاح، وظلم وعدل وغير ذلك من الأحوال التي تطرأ على البشر.

المراجع

أولاً: المراجع العربية

- ابن خردادبه، أبو القاسم عبيدالله بن أحمد (ت ٢٨٠هـ، ٩١٢م). القاهرة: المسالك والممالك. دار الكتاب المصري، (د.ت.).
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبدالرحمن الحضرمي (٧٣٢-١٣٣٢هـ، ٨٠٨-١٤٠٥م). كتاب العبر، ديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت، (١٩٨٤م).
- ابن زبالة، محمد بن الحسن. أخبار المدينة. تحقيق: صلاح عبدالعزيز زين سلامة، المدينة المنورة: مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، (١٤٢٤هـ).
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبدالله الشافعي (٤٩٩-٥٧١هـ). تاريخ دمشق. دراسة وتحقيق: علي شيري، دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (١٩٩٠م).
- ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ). البداية والنهاية. بيروت: دار الكتب العلمية، (٢٠٠٩م).
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن حنبل، حبقة الأنصاري الإفريقي (ولد عام ٦٣٠هـ، ١٢٣٢م). لسان العرب. بيروت: دار صادر، (د.ت.).
- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عز الدين (٥٥٥-١١٦٠هـ، ٦٣٧-١٢٣٩م). الكامل في التاريخ. صحح أصوله: عبد الوهاب النجار، القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، (١٩٣٨م).
- ابن الضياء، أبو البقاء. تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام. بيروت: دار الكتب العلمية، (١٩٩٧م).
- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ). بغية الطلب في تاريخ حلب. دمشق: دار الفكر، (٢٠٠٥م).
- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد الطنجي (٧٠٣-٧٧٩هـ، ١٣٠٤-١٣٧٧م). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، (١٩٩٧م).

- الإصبهاني، أبو علي المرزوقي (ت ٤٥٣هـ). الأزمنة والأمكنة. حيدر آباد: دار المعارف النظامية، (١٣٣٢هـ).
- بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. ترجمة: محمود فهمي حجازي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٩٣م).
- البغدادي، أبو بكر الخطيب، أحمد بن علي (٣٩٣-٤٦٣هـ). تاريخ بغداد. ١٤ جزءاً، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.).
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ). فتوح البلدان. بيروت: دار ومكتبة الهلال، (٢٠٠١م).
- بن حموش، مصطفى وبلقاضي، بدر الدين. خطط مدينة الجزائر. مخطوط للفرنسي ألبير ديفولكس، أبو ظبي: المجمع الثقافي، (٢٠٠٤م).
- الجبرتي، عبدالرحمن (١١٦٦-١٢٣٦هـ). عجائب الآثار في التراجم والآثار. بيروت: دار الكتب العلمية، (١٩٩٧م).
- الحموي، ياقوت بن عبدالله الرومي (٥٧٤-١١٧٨هـ، ٦٢٢-١٢٢٥م). معجم البلدان. تحقيق: عبدالله بن يحيى السريحي، أبو ظبي: المجمع الثقافي، (٢٠٠٢م).
- السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (٨٣٠-٩٠١هـ). التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. القاهرة: مطبعة دار نشر الثقافة، (١٣٩٩هـ).
- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـ). وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحמיד، مصر الجديدة: دار إحياء التراث العربي، (١٩٥٥م).
- السيوطي، عبدالرحمن بن الكمال أبو بكر بن محمد سابق الدين الخضيري (٨٤٩-٩١١هـ، ١٤٤٥-١٥٠٥م). حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، (١٩٦٧م).
- شلتوب، فهيم محمد. تاريخ المدينة. جدة، (١٤٠٣هـ).
- شميساني، حسن الحافظ بن عساكر. سلسلة أعلام مؤرخي العرب والإسلام. بيروت: دار الكتب العلمية، (١٩٩٠م).
- الصفدي، الصلاح (ت ٧٦٤هـ). الوافي بالوفيات. تحقيق: ماهر جرار، بيروت: دار الكتاب العربي، (١٩٩٧م).
- الطبري، أبو جعفر (٢٢٤-٣١٠هـ، ٨٣٩-٩٢٣م). تاريخ الأمم والملوك. ٧ أجزاء، بيروت: مؤسسة عز الدين، (١٩٨٦م).
- عاصي، حسين المقرئ تقي الدين أحمد بن عبدالقادر العبيدي (٧٦٦-٨٤٥هـ، ١٣٦٦-١٤٤١م). مؤرخ الدول الإسلامية في مصر. سلسلة أعلام مؤرخي العرب والإسلام. بيروت: دار الكتب العلمية، (١٩٩٢م).

- عبدالستار، محمد عثمان. عمارة سدوس التقليدية: دراسة أثرية معمارية. الإسكندرية: دار الوفاء للنشر والطباعة والتوزيع، (١٩٩٩م).
- العلي، صالح أحمد. بغداد مدينة السلام. بغداد: مطبعة المجمع العلمي، (١٩٨٥م).
- عنان، عبدالله. ابن خلدون حياته وتراثه الفكري. القاهرة: دار الكتب المصرية، (١٣٥٢هـ) (١٩٣٣م).
- الفيروزبادي. القاموس المحيط. متوفر على الموقع: <http://www.alwarraq.com>
- القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (٧٥٦-٨٢١هـ). صبح الأعشى في صناعة الإنشا. تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الفكر، (د.ت.).
- كرد علي، محمد (١٨٧٠-١٩٥٣م). خطط الشام. دمشق: مكتبة النوري، (١٩٨٣م).
- لمعي، صالح مصطفى. المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري. بيروت: دار النهضة العربية، (١٩٨١م).
- مبارك، علي. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة. بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية، (١٣٠٤-١٣٠٦هـ)، (١٨٨٦-١٨٨٨م).
- المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ، ٩٥٧م). مروج الذهب ومعادن الجوهر.
- بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، (١٩٧٩م).
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله بن أبي بكر (ت ٣٨٠هـ). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق: إبراهيم خوري، بيروت: دارالمشرق، (١٩٩٣م).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (٧٦٥-٨٤٤هـ). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٣ أجزاء، تحقيق: د. محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، القاهرة: مكتبة مدبولي، (١٩٩٨م).
- النميري، ابن شبه (١٧٣-٢٦٢هـ). تاريخ المدينة المنورة. قم: دار الفكر، (١٤١٠هـ).
- اليقوي، أحمد بن إسحاق (توفي عام ٢٩٢ هـ تقريباً). فتوح البلدان. بيروت: دار الكتب العلمية، (٢٠٠٢م).

ثانياً: المراجع الأجنبية

- Knowless, K. A. (Ed.). *Past Time, Past Place GIS for History*. Redland: ESRI Press, (2002).
- Oulebsir, N. *Les Usages du Patrimoine*. Paris: Editions des la maison des sciences de l'homme, (2004).

The Story of a Place vs. the Place of a Story: Revisiting the Topography of Cities

Mustapha Ben Hamouche

*Department of Civil & Architectural Engineering,
College of Engineering, University of Bahrain*

(Received 1/3/1430H.; accepted for publication 4/4/1431H.)

Abstract. The paper presents a field of science in Arabic culture known as *khitat*, that is the topography of cities. It focuses on the study of cities as a physical entity that contained historical events, personalities and social communities. The concept was in its early time used by Al-Tabari in the description of Kufa as an urban planning unit and then by Al-Maqrizi in his description of Cairo to connote the concept of a residential quarter. The study considers the concept as a symbiosis between two other major fields of human sciences that are history and geography. *Khitat* is, thus, a field that concerns the place of a story as well as the story of a place. The study aims at: (1) reconsidering the concept in the urban literature, (2) highlighting an important area of the Muslim written heritage, and (3) inaugurating a new area of urban studies that bridges the gap between geography and history.